

إضاءات نقدية (مقالة محكمة)
السنة الرابعة عشرة - العدد الخامس والخمسون - خريف ١٤٠٣ ش / أيلول ٢٠٢٤م

ص ١٣١ - ١٠٩

تحليل الخطاب النقدي لرواية "يوتوبيا" لأحمد خالد توفيق في ضوء نظرية تيون فان دايك

جابر امام زاده (الكاتب المسؤول)*

أبو الحسن أمين مقدسي**

الملخص

يتناول هذا البحث تحليل رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق من منظور التحليل النقدي للخطاب، بالاعتماد على الإطار النظري الذي طوره تيون فان دايك، ويسعى إلى تبيان كيفية استخدام الخطاب لبناء علاقات قوة غير متوازنة وترسيخ الفجوة الطبقية بين سكان يوتوبيا (الطبقة الثرية) والآخرين (الطبقة المحرومة). تعتمد المنهجية المتبعة على تحليل البنى الخطابية الكلية والجزئية، ودراسة استراتيجيات تمثيل الذات والآخر، وتحديد الأيديولوجيات المضمرة في السرد. يتركز التحليل على المشاهد الرئيسية في الرواية، مثل الأوصاف المتناقضة للعالمين، وصورة شخصيات الطرفين، ومشهد "الصيد" كتجسيد للعنف الموجه ضد الآخر. وقد كشف تطبيق نموذج المربع الأيديولوجي لفان دايك في تحليل النص عن استخدام الكاتب لاستراتيجيات أيديولوجية، وتمثيلة للامساواة الاجتماعية في البنية السردية. والمجدير بالذكر في يوتوبيا أن كلا الطرفين (سكان يوتوبيا والآخرين) يشاركون في بناء هذا المربع الأيديولوجي، حيث يسعى كل منهما إلى تقديم صورة إيجابية عن ذاته وتشويه صورة الآخر؛ وهو ما يعكس تبادلاً للصور النمطية وترسيخاً مزدوجاً للشقاق الطبقي. يخلص البحث إلى أن اللغة في يوتوبيا ليست محايدة، بل تُستخدم كأداة للهيمنة الرمزية، إذ تساهم في نزع الإنسانية عن "الآخر" وإضفاء الشرعية على ممارسات العنف في عالمها الديستوبي. ويكشف الكاتب من خلال الخطاب بين الطبقات عن بني العنف الرمزي في المجتمعات المعاصرة، ويجعل من اللغة مرآة تعكس الظلم الطبقي والسياسي.

الكلمات الدلالية: يوتوبيا، أحمد خالد توفيق، التحليل النقدي للخطاب، تيون فان دايك، السلطة، الأيديولوجيا.

**. حاصل على شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة طهران،

طهران، إيران
jaber.emamzadeh@ut.ac.ir

**. أستاذ في قسم اللغة العربية وآدابها بجامعة طهران، طهران، إيران

تاريخ القبول: ١٤٤٧/٠١/٢٠

تاريخ الاستلام: ١٤٤٦/١٢/١٩

المقدمة

تعد رواية يوتوبيا للكاتب المصرى الراحل أحمد خالد توفيق (٢٠١٨-١٩٦٢م)، علامة بارزة فى أدب الديستوبيا العربى المعاصر، وقد حظيت باهتمام نقدى وجاهيرى واسع نظرا لتصويرها الجريء والمقلق لمستقبل ممكن. تقدم الرواية صورة قائمة لمجتمع منقسم إلى طبقتين منفصلتين تماما: يوتوبيا، المدينة الفاحشة الثراء والمعزولة خلف أسوار وحراسات مشددة، والتي يعيش سكانها حياة مترفة وفارغة تصل إلى حد الملل القاتل والبحث عن أى شكل من أشكال الإثارة حتى لو كانت وحشية؛ وفى المقابل، "العالم الخارجى" أو "الأغيار"، حيث يعيش المهمشون فى فقر مدقع وظروف لا إنسانية، محرومين من أبسط مقومات الحياة. تستكشف الرواية بعمق إشكاليات محورية تتمثل فى التفاوت الطبقي الصارخ، والعزلة الاجتماعية والنفسية، والآثار المدمرة لتجريد الإنسان من إنسانيته، سواء كان ذلك تجريدا للآخر المضطهد أو تأكلا لإنسانية الفئة المهيمنة ذاتها.

فى ظل هذا العالم المتشظى، يبرز دور اللغة والخطاب كأداة فعالة فى تشكيل التصورات وترسيخ الهيمنة. ومن هنا، ينطلق التساؤل الرئيسى لهذا البحث: كيف يسهم الخطاب فى رواية يوتوبيا فى بناء علاقات القوة غير المتكافئة والأيدولوجيات المهيمنة، وفى تعزيزها وإضفاء الشرعية عليها؟ تسعى هذه الدراسة إلى الإجابة على هذا التساؤل المحورى من خلال تطبيق أدوات التحليل النقدى للخطاب، وبالأخص الإطار النظرى الذى قدمه تيون فان داىك. يهدف هذا البحث إلى كشف الآليات اللغوية والسردية التى من خلالها يتم تشكيل الواقع الاجتماعى، وتبرير الهيمنة، وتطبيع الظلم فى عالم الرواية. سنركز على كيفية توظيف استراتيجيات تمثيل "الذات" الإيجابية (سكان يوتوبيا) و"الآخر" السلبية (الأغيار)، وتحليل البنى الأيدولوجية العميقة التى تغذى هذا الاستقطاب الحاد وتحافظ على استمراريته، مما يجعل من الخطاب أداة رئيسية للسيطرة الاجتماعية وإنتاج اللامساواة فى هذا العالم الديستوبى.

الدراسات السابقة

تعد نظريات تيون فان دايك، وخاصة نموذجه للمربع الأيديولوجي وتحليله لكيفية بناء "الذات" و"الآخر" في الخطاب، من الأدوات المنهجية الأساسية في التحليل النقدي للخطاب. وقد طبقت هذه النظريات على نطاق واسع في تحليل أنواع مختلفة من الخطابات، بما في ذلك الخطاب السياسي، والإعلامي، والاجتماعي، لكشف علاقات القوة الكامنة وآليات الهيمنة الأيديولوجية. على سبيل المثال، استخدمت دراسات عديدة مثل دراسة فان دايك نفسه حول الخطاب العنصري في الصحافة "Discourse and Racism in Spain and Latin America" إطاره النظري لتحليل كيفية مساهمة اللغة في إنتاج التمييز وإعادة إنتاجه، وتبرير اللامساواة الاجتماعية. كما تم تطبيق منهجه على نصوص أدبية لكشف الأبعاد الأيديولوجية المضمنة فيها.

أما رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق فقد حظيت باهتمام من قبل الباحثين، وإن كانت الدراسات التي تناولتها بالتحليل الخطابي النقدي، وتحديدًا من منظور تيون فان دايك، لا تزال محدودة. من بين الدراسات التي تناولت الرواية من زاوية مختلفة، نجد مقالاً بعنوان «أدب الخيال العلمي الاجتماعي في رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» (٢٠٢٣م) للباحثين فرهنگ مفاخرى وعبد الله حسيني، والتي نشرت في مجلة الجمعية الإيرانية للغة العربية وآدابها. يقدم البحث تحليلاً استشرافياً لرواية يوتوبيا بناءً على المنهج الوصفي التحليلي وبالاعتماد على آراء المتخصصين في مجال أدب الخيال العلمي الاجتماعي، حيث تظهر سمات هذا الفرع الأدبي بوضوح في الرواية. وخلصت الدراسة إلى أن الكاتب قد خلق ثنائية من المدينة الفاضلة (اليوتوبيا) والمدينة الفاسدة (الديستوبيا) وعمل على تطويرها عبر الرواية ليكشف من خلالها عن الجروح الاجتماعية.

و تناولت دراسة محمود محمد السعيد أبو زهرة (٢٠٢٠م) بعنوان «ملامح الديستوبيا في رواية يوتوبيا للكاتب أحمد خالد توفيق» تحليل الرواية من منظور الديستوبيا، مركزة على الخراب النفسي والمادي في المجتمع المصري كما يصوره الكاتب. وقد استعرضت الدراسة مستويات الديستوبيا في الرواية، مثل الخراب النفسي والتحول في

العلاقات الأسرية، والخراب المادى مثل الفقر وانتشار المخدرات والقتل.

كما تناولت دراسة منتصر نبيه محمد صديق (٢٠٢١م) بعنوان «رؤية الواقع وأثرها على بناء الشخصية فى رواية يوتوبيا لأحمد خالد توفيق» تأثير رؤية الكاتب للواقع على تشكيل الشخصيات الروائية، محللة الثنائيات الضدية المرتبطة بالشخصية داخل الرواية. وقد استعرضت الدراسة الأساليب التى اعتمدها الكاتب فى بناء شخصياته، مثل الوصف الاجتماعى والنفسى والمادى.

وفى دراسة ناهد عصام محمد (٢٠٢٣م) بعنوان «الإطار الزمانى\المكانى فى رواية يوتوبيا» تم تحليل الإطار الزمانى والمكانى للرواية باستخدام مفاهيم ميخائيل باختين ويورى لوتمان، مظهرة كيف يسهم الفضاء الزمنى والمكانى فى تشكيل المعنى الاجتماعى والسياسى للرواية.

على الرغم من الدراسات المتعددة التى تناولت رواية يوتوبيا من زوايا مختلفة، إلا أن تطبيق نظرية تيون فان دايك فى تحليل الخطاب النقدى لهذه الرواية يعد أمراً جديداً ومهماً. فمن خلال استخدام "المربع الأيديولوجى" لفان دايك، يمكن الكشف عن كيفية تمثيل الخطاب الروائى للسلطة والهيمنة، وكيفية تشكيل الهوية الجماعية والفردية فى سياق اجتماعى متدهور. هذا التحليل يسهم فى فهم أعمق للبنية الأيديولوجية للرواية ويقدم إضافة نوعية فى مجال الدراسات الأدبية والنقدية.

الإطار النظرى

المبادئ العامة للتحليل النقدى للخطاب (CDA)

التركيز على القضايا الاجتماعية: التحليل النقدى للخطاب لا ينطلق من اللغة لذاتها، بل من المشكلات الاجتماعية الملموسة كالظلم واللامساواة. يرى أن الحياة الاجتماعية شبكة من الممارسات المترابطة (كالترابط التعليم أو الإعلام)، والخطاب جزء أساسى منها. يظهر الخطاب كجزء من النشاط الاجتماعى، وفى تمثيل الفاعلين للممارسات، وفى تشكيل الهويات (كهوية القائد السياسى). (بن غالى، ٢٠٢٤م: ٢٤٥)

العلاقة بالسلطة: يهتم التحليل بكيفية ممارسة السلطة، خاصة إساءة استخدامها،

وآليات الهيمنة التي تفرضها جماعة على أخرى. مهمته الأساسية هي كشف كيف يساء استخدام السلطة أو تعاد إنتاجها وتشرعن عبر الخطاب من قبل الجماعات المهيمنة. تعرف السلطة الاجتماعية بأنها سيطرة فئة على أفعال أو عقول فئة أخرى، مما يحد من حريتها أو يؤثر في معارفها. أما الهيمنة فهي ممارسة غير شرعية لهذه السلطة لمصالح خاصة، وغالبا ما تؤدي للامساواة الاجتماعية. (الزناتي، ٢٠٢٤م: ٣٦)

اللامساواة: تعد اللامساواة محورا رئيسيا، حيث يسعى التحليل النقدي للخطاب لفهم كيفية بنائها وإعادة إنتاجها خطبيا. نظرا لأن خطابات كثيرة تمارس التمييز والهيمنة ضد فئات معينة، رأى الدارسون أن تغيير الخطاب قد يساهم في تغيير المجتمع. ولذلك، يهدف التحليل إلى إنتاج خطابات تضعف من هذه اللامساواة أو على الأقل تخلو منها، مما دفع للاهتمام بما يسمى "بلاغة الجمهور". (سامح، ٢٠١٧م: ١١٥)

الهدف الكشفي: الهدف من التحليل النقدي للخطاب ليس مجرد الوصف، بل هو "كشف" علاقات القوة غير المتكافئة وآليات السلطة والهيمنة المخفية أو المبررة في الخطاب. إن كشف آليات اشتغال العنف الرمزي، المتجذر في علاقات القوة، يكشف أوهام المجتمع وممارساته التي تبدو طبيعية. ومع ذلك، يرى البعض أن هذا التركيز على آليات الهيمنة والتعسف، كما في أعمال بورديو، قد يوحى بحتمية الوضع ويغلق الباب أمام إمكانيات التغيير. (العلی، ٢٠٢٢م: ١٠٣)

الأداة: تحليل اللغة والخطاب: الوسيلة لتحقيق هذا الهدف الكشفي هي التحليل الدقيق "لغة والخطاب". يدرس التحليل النقدي كيف أن استعمال اللغة يعيد إنتاج رؤى وقيم وطرق أصحاب القوة والنفوذ، والتي قد لا ينتبه إليها الأقل نفوذا. يركز على العلاقة بين اللغة، والقوة/النفوذ، والأيدولوجيا (وهي تمثيل لجوانب من الحياة تساهم في تأسيس علاقات السيطرة واللامساواة). ويسعى التحليل، باستخدام أدوات لغوية، إلى إلقاء الضوء على كيف يساهم استعمال اللغة في السيطرة على جماعات اجتماعية معينة وفي سوء تمثيلها، ولا يقتصر ذلك على الممارسات السياسية بل يمتد للممارسات التعليمية وغيرها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٠)

مثلث فان دايك: الخطاب-الإدراك-المجتمع

يقدم فان دايك نموذجاً يوضح العلاقات المتداخلة بين الأيديولوجيا، والمجتمع، والإدراك (العمليات المعرفية كالذاكرة)، والخطاب. فالتفاعل الاجتماعي ضمن الهياكل المجتمعية يتجلى كخطاب يدرك عبر هذا النظام المعرفي. ولهذا، يهتم التحليل الثقافي للخطاب بـ"العقد الخطابية"، وهي النصوص المركزية الحاكمة والمؤثرة، بغض النظر عن عدد النصوص المحللة. (محمد، ٢٠٢٣م: ١١٢)

يعتبر فان دايك، وفقاً لهذا الطرح، الباحث الذي سعى لدمج النظريات الإدراكية باللغويات والنظريات الاجتماعية. تقترح نظريته، المعروفة بـ"النظرية الاجتماعية/ الإدراكية لدراسات الخطاب النقدي"، نموذجاً ثلاثي المستويات يربط بين الخطاب والإدراك والمجتمع. يوظف في هذا النموذج "الأطر الإدراكية" كطبقة وسطى تتوسط بين البنى اللغوية للخطاب (كالاختيارات الدلالية والاستراتيجيات البلاغية) في المستوى الأدنى، والبنى المجتمعية (كالعرق والجنس) في المستوى الأعلى، مع العلم أن هذه المستويات هي مجازات تحليلية في نظره. وبالتالي، فإن التحليل النقدي للخطاب هو تحليل إدراكي واجتماعي وسياسي في آن واحد، ويعد هذا الترابط بين الخطاب والتفاعل من جهة، والبنى الاجتماعية من جهة أخرى، إحدى أبرز خصائصه. وقد ركزت نسبة كبيرة من أبحاث فان دايك على قضايا التنميط (أي إعادة إنتاج التحيز العرقي)، وإساءة استخدام السلطة من قبل النخب، والمقاومة التي تبديها المجموعات المهمين عليها. (الشويرخ، ٢٠٢٣م: ٤٤٥)

يرى فان دايك أن الخطاب هو حدث تواصل يظهِر تنوعات المعنى، ويشدد على أهمية لسانيات النص واللسانيات الإدراكية ضمن ما يسميه "المذهب الاجتماعي الإدراكي". يستكشف هذا المذهب العلاقة بين الظواهر الإدراكية وبنى الخطاب والبنى الاجتماعية، ليشكل بذلك نموذجاً الثلاثي الشهير: الخطاب-الإدراك-المجتمع. ومن القضايا الأساسية لديه أن العلاقة بين الخطاب وسياقه جوهريّة في التحليل النقدي للخطاب. يفضل فان دايك استخدام مصطلح "دراسات الخطاب النقدي" (CDS) بدلاً من تحليل الخطاب النقدي (CDA)، حيث يرى أن (CDS) تجمع بين طرق وأفكار

متعددة من علم النفس، واللسانيات النقدية، والعلوم الاجتماعية والإنسانية، فهي ليست مجرد طريقة تحليلية واحدة. ومن المهم الإشارة إلى أن هذا المذهب لا يقتصر على الجوانب الاجتماعية والإدراكية فحسب، بل يسعى أيضا لتقصي التمثيل الذهني لمستخدمي الخطاب، وعمليات إنتاج الخطاب واستيعابه، بالإضافة إلى الأيديولوجيات السائدة في المجتمع. لاحقا، ركز فان دايك بشكل متزايد على كيفية إعادة إنتاج اللامساواة الاجتماعية وإساءة استخدام السلطة والنفوذ، وبصفة خاصة على إعادة إنتاج "العرقية" من قبل من أسماهم "النخب الرمزية" (كالسياسيين والإعلاميين والعلماء والكتاب)، وذلك في وسائل الإعلام المطبوعة، ساعيا بذلك إلى ردم الفجوة بين المجتمع والخطاب. (الشويرخ، ٢٠٢٥م: ٢١٨)

مفاهيم فان دايك الأساسية

السلطة (Power): يعرف فان دايك السلطة بأنها ليست مجرد أداة للقمع، بل هي سيطرة على أفعال وعقول جماعة أخرى، ويتم ذلك بشكل خاص عبر التحكم في الخطاب العام. يوضح أن الأيديولوجيات غالبا ما تشكل لإضفاء الشرعية على سيطرة طبقة حاكمة أو نخب. فإذا كانت السلطة تعني قدرة مجموعة على التحكم في أفعال مجموعة أخرى، فإن وظيفة الأيديولوجيات في هذا التحكم هي تمثيل جانبه الذهني؛ أي أنها توفر المبادئ التي تبرر ممارسات المجموعة المسيطرة (كالتمييز)، وتسوغ استغلال السلطة، وتضفي عليه الشرعية، وتسهل قبوله من المجموعة المسيطر عليها. بعبارة أخرى، الأيديولوجيات هي وسيلة وغاية لممارسات المجموعة، وهدفها إعادة إنتاج المجموعة وسلطتها (أو تحدى سلطة مجموعات أخرى). ويستخدم مصطلح "الأيديولوجيات المسيطرة" للإشارة إلى تلك التي توظفها المجموعات المهيمنة لإعادة إنتاج سيطرتها أو إضفاء الشرعية عليها. (فان دايك، ٢٠٢٣م: ٣٧)

الأيديولوجيا (Ideology): هي الأنظمة الأساسية للمعتقدات الاجتماعية التي تنظم كيفية فهم الجماعات للعالم الاجتماعي (الإدراك الاجتماعي)، وتستخدم لتبرير الأفعال والعلاقات الاجتماعية، وخاصة العلاقات غير المتكافئة. يرى فان دايك أن إحدى

الوظائف الأساسية للأيدولوجيا هي ضمان شرعية السلطة وتحقيق الهيمنة لأفكارها الحاكمة عبر إقناع المتلقين بها. لذلك، يهتم الباحث في التحليل النقدي للخطاب بكيفية تأثير هذه الأيدولوجيا أو دعم توجهاتها من خلال دراسة نصوص الخطاب، بهدف فهم علاقات السلطة بين الأطراف (المرسل والمستقبل)، وكذلك فهم الأهداف السياسية التي يسعى المخاطب لتحقيقها عبر استخدام الخطاب. (الساوي، ٢٠١٣م: ٢٣٩)

تمثيل الذات والآخر (Self and Other Representation): يشير هذا المفهوم إلى الاستراتيجيات الخطابية المستخدمة لتقديم صورة إيجابية عن "نحن" (الجماعة الداخلية/In-group) وصورة سلبية عن "هم" (الجماعة الخارجية/Out-group). هناك استراتيجيات دلالية (معنوية) قليلة تسود في النقاشات حول الآخرين، إلى جانب التعبير عن تصورات مستقطبة وتقسيم الناس إلى "نحن" و"هم". هذا يوحي بأن التصورات الاجتماعية الكامنة عن الجماعات (مثل المواقف والأيدولوجيات) هي التي تتحكم في الحديث والنصوص المتعلقة بالمهاجرين أو اللاجئين، وليس بالضرورة نماذج لأحداث فردية (إلا إذا استخدمت كأمثلة توضيحية). يمكن أن ينطبق هذا الاستقطاب أيضا على تصنيفات فرعية للجماعات الخارجية، مثل تقسيمهم إلى "جيدين" و"سيئين" أو "أصدقاء" و"أعداء". يمتاز الحديث داخل الجماعة الواحدة، سواء كان مصحوبا بانتقاص للجماعات الخارجية أم لا، باستراتيجية عامة أخرى، وهي "تفضيل الجماعة الداخلية" أو "التقديم الإيجابي للذات". يتخذ ذلك شكلا فرديا أو جماعيا، حيث يؤكد المتكلم على الخصائص الإيجابية لمجموعته (كحزبه أو بلده). يتجلى هذا التقديم الإيجابي للذات في سياق النقاشات حول الهجرة، على سبيل المثال، من خلال تأكيد التسامح، أو الضيافة، أو عدم التحيز، أو التعاطف، أو دعم حقوق الإنسان. ويعد التقديم الإيجابي للذات ذا طبيعة أيدولوجية في الأساس، لأنه مبني على الصورة الذاتية الإيجابية التي تحدد أيدولوجيا المجموعة. (فان دايك، ٢٠٢٣م: ١١٢)

المربع الأيدولوجي

يعتبر المربع الأيدولوجي (Ideological Square) الذي قدمه تيون فان دايك أحد

النماذج التحليلية المؤثرة والمستخدمة على نطاق واسع في التحليل النقدي للخطاب. يركز هذا النموذج بشكل خاص على تحليل كيفية التمثيل الأيديولوجي لمجموعة "نحن" المجموعة الداخلية مقابل مجموعة "هم" المجموعة الخارجية في الخطاب. يقوم النموذج على استراتيجية كلية تعرف بـ "الاستقطاب" (Polarization) والتي تتضمن أربع حركات أساسية:

التأكيد على الجوانب الإيجابية لـ "نحن" (Emphasize our good sides)

التأكيد على الجوانب السلبية لـ "هم" (Emphasize their bad sides)

التقليل من أهمية الجوانب السلبية لـ "نحن" (De-emphasize our bad sides)

التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لـ "هم" (De-emphasize their good sides)

يهدف استخدام هذه الاستراتيجيات الخطابية إلى بناء صورة إيجابية للمجموعة الداخلية، وفي الوقت نفسه، خلق أو تعزيز صورة سلبية للمجموعة الخارجية. وهذا بدوره يساهم في تبرير الأفعال، والحفاظ على التماسك الجماعي، وإعادة إنتاج الأيديولوجيات السائدة وعلاقات القوة غير المتكافئة. (Jawad, 2023, p. 1064)

بنى الخطاب

البنى الكبرى (Macrostructures): وهي الموضوعات والمواضيع العامة. يرى فان دايك أن «الأبنية الكبرى للنصوص دلالية؛ فهي تصور الترابط ومعنى النص الذي يستقر على مستوى أعلى من مستوى القضايا الفردية، وبذلك يمكن أن يشكل تتابعا كليا أو جزئيا لعدد من القضايا ذات وحدة دلالية على مستوى أكثر عمومية» ويقصد بها فان دايك المعنى الإجمالي للنص / الخطاب؛ يقول: «المفهوم النظري الذي سنستعمله لوصف هذا المعنى الإجمالي، أى موضوع أو قيمة النص، ما هو إلا مفهوم البنية الكبرى "الدلالية"، كما هو الشأن بالنسبة لأي بنية دلالية، فإن البنية الكبرى تتركب أيضا من قضايا تهتم بنفس الوقائع في مستوى عال أو أكثر تجريدا أو أكثر عمومية أو أكثر إجمالا.» (أعرضي، ٢٠٢٥م: ٣٦١)

البنى الصغرى (Microstructures): يكمن جوهر التأويل في تفكيك الخطاب

إلى قضايا جزئية وترتيبها ترتيباً سلمياً، وذلك قصد بناء دلالة القضايا المشكلة له، ومن ثمة تخطى هذا المستوى لإقامة البنية العامة للمحتوى. فى هذا الإطار يدرج فان داىك مفهوم البنية الصغرى أو ما يسمى بـ "أساس النص" ويتحدد فى كونه عبارة عن لائحة من القضايا المبنية التى تمثل المعنى المحلى للنص، حيث تنتظم كل قضية فى محمول وعدد من الموضوعات. (العربى، ٢٠١٩م: ٥٩)

تحليل الخطاب فى رواية يوتوبيا باستخدام نظرية فان داىك

مثلث فان داىك: الخطاب - المعرفة - المجتمع

تقوم نظرية فان داىك على مثلث ثلاثى الأبعاد يتكون من: الخطاب، والمعرفة، والمجتمع. وفى رواية يوتوبيا، يتجلى هذا المثلث بشكل صارخ من خلال البنية الخطابية التى تعكس تمثيلات السلطة والتمييز الطبقي والاحتقار الاجتماعى بين طبقتين رئيسيتين: اليوتوبيين الذين يمثلون الصفوة الثرية، والأغيار الذين يمثلون الفقراء والمنسحقين.

الخطاب: يتجلى الخطاب فى بنية النص الروائى التى يقدم فيها السارد رؤيته الذاتية المتعالية على الآخر. يعبر السارد (الذى ينتمى إلى يوتوبيا) بلغة نرجسية وفوقية عن الواقع من منظوره، مما يرسخ خطاباً إقصائياً قوامه التمرکز حول الذات، وتشبیه الآخر، وتحويله إلى مجرد أداة للمتعة أو العنف أو التجربة العابرة. فمثلاً، حين يتحدث عن الأغيار يقول: «ما أقبح منظره!.. كل عالمه تلخص فى هذه الشطيرة التى فى يدي، ولم يعد يعرف أى شىء عما يدور حوله» (توفيق، ٢٠١٤م: ٢٢)، مما يعكس تحقيراً واضحاً وتجريداً للآخر من كينونته الإنسانية.

ويتكرر الخطاب النرجسى عند وصفه ليوميته فى يوتوبيا، حيث يقول: «أصحو.. أضاجع الخادمة.. ألقى.. أضحك.. أرقص.. ألبس.. أأدس.. إصبعى.. أرى النيران الخضر..» (ص: ١٢ و ١١٦)، وهو وصف ينزع عن ذاته أى عمق إنسانى، ويجول الوجود إلى استعراض حسى عديمى، مقابل تحويل الآخر إلى موضوع للمراقبة أو الصيد أو الازدراء.

المعرفة: يظهر النص أن المعرفة متحيزة وفقاً للانتماء الطبقي. اليوتوبيون لا يعرفون

عن الأغيار سوى ما يرغبون في تصديقه عنهم: أنهم وحوش، قذرون، بلا عقل ولا أخلاق. يتجلى ذلك في قول السارد: «بشكل ما، يستحق الفقراء كل ما هم فيه.. إنهم أقل ذكاء من آباءنا.. إنهم ضعيفو الإرادة خاملو الحركة.» (ص: ١١٩) هذه المعرفة ليست مستندة إلى احتكاك حقيقي، بل إلى خطاب مكرر داخلي يغذى الانفصال. بالمقابل، الأغيار - ممثلين في شخصية جابر - يمتلكون معرفة واقعية بالواقع المنشط خارج الأسوار. جابر يعلم خبايا الأرض، ويعي حقائق الحياة القاسية، ويستطيع فضح زيف رفاهية يوتوبيا، كما نقرأ في قوله: «لكنني بالفعل لا أريد دما.. لا أريد قتلى.. هذه هي النقطة التي تحدد كل شيء.. الدليل الوحيد الذي يخبرني أنني ما زلت آدميا ولم أتحول إلى ضبع، أنني في هذا أتفوق عليهما..» (ص: ٧٨)، مما يكشف وعيا أخلاقيا مضادا.

المجتمع: المجتمع في يوتوبيا مجتمع منقسم على نحو قطبي متطرف؛ الجدار الفاصل بين الطرفين لا يمثل فقط حدودا فيزيائية، بل هو حاجز أيديولوجي معرفي ثقافي يرسخ عبر خطاب يتكرر داخل الرواية بأشكال متعددة: إعلام، تعليم، دين، سرد شخصي، وأساطير حياة الصفوة. من الأمثلة البارزة على هذا الانقسام حديث السارد عن بوابات يوتوبيا والأسلاك المكهربة والدوريات، حيث يقول: «ليس من السهل أن تتسلل لعالم الفقراء بالخارج.. العسر كل العسر أن تستطيع المرور من بوابة الحراسة المحكمة حول يوتوبيا.. إن الفقراء وأبناء الأكابر يبدوون متشابهين عندما تراههم في الظلام من طائرة.. طلاقات في الظلام.. جثثا هامدة وحادثا مؤسفا..» (ص: ١٩) كذلك، تكشف الرواية عن صورة دينية مشوهة تؤدي دور التبرير الطبقي، كما في وصفه لحج الآباء المتدينين باعتباره وسيلة للتطهر من الدماء التي سفكت لبناء رفاهيتهم: «منطقة دور العبادة التي بها أكثر من مسجد وكنيسة ومعبد يهودي.. أعتقد أن سبب تشبث الكبار بذلك هو خشيتهم من أن يفقدوا كل شيء في لحظة.. أن يضيع التميز.. أن يجدوا أنفسهم في الخارج.. هناك سبب آخر مهم في رأيي، هو ولع الكبار بأن يجمعوا بين طابعي الثراء والورع.. الثراء والورع ثنائى محفور كما يبدو في عقول جيل الآباء المصريين منذ دهور.» (ص: ٨)

هكذا، تخلق الرواية مجتمعا لا يكتفى بالتمييز الطبقي بل يعيد إنتاجه عبر أنظمة رمزية تشعر الطبقة العليا بأنها الأصل، وأن الآخر ناتج خلل ينبغى محوه أو تهميشه أو استخدامه كمجرد وسيلة لبلوغ المزيد من اللذة أو التسلية.

تطبيق المربع الأيديولوجي على الرواية التقديم الإيجابي للذات

يقدم سكان يوتوبيا أنفسهم كصفوة متحضرة، عصرية، تملك التكنولوجيا والمال والجمال. يستخدمون لغة تمييزية تضعهم في منزلة أعلى من بقية البشر، ويشعرون أنهم يستحقون كل ما ينعمون به، بل وينظرون للآخرين كعالة على هذا التقدم. يقول السارد: «أعرف أنني أستطيع قهر جابر لو هاجمنا.. لن ينتصر الفقر والشحوب وسوء التغذية على الثراء والرياضة منذ الصغر.» (ص: ١٠٧)

ويتفاخر كذلك بتفاصيل حياته المترفة: «عاشرت كل فتاة راقية لي، وجربت كل أنواع المخدرات.. كنت قد بدأت تجاربي بالماريجوانا.. إكستازي.. وجربت LSD. جربت عقاقير كثيرة جدا.. ولكن مشكلة المخدرات هي أنها تفقد إثارتها ما دامت متاحة.. من حتى أن أتعاطي أي شيء بأي كمية وبأي ثمن..» (ص: ٥) كما يتفاخر بأسلوبه الجنسي العدواني كدليل على القوة والهيمنة، فيقول: «من الطريف أن تلاحظ كيف يجعل الملل سلوكك الجنسي عدوانيا ساديا.. لو كنت تعرف طريقة أخرى يمارس بها المرء حياته، فلسوف يسعدني أن تقولها..» (ص: ٦) هذا التقديم الذاتي الإيجابي يرسخ صورة البوتوبي كمتحكم في العالم ومصيره، لا تحدّه قوانين أو أخلاق.

التقديم السلبي للآخر

يصور الراوى البوتوباوى الأغيار ككائنات دونية، أشبه بالحيوانات، ويختزلون في صفات القذارة، التخلف، العنف، والشهوة البدائية، فيقول في وصفه لصفية (أخت جابر) «ثمة شيء حيواني غريب في تلك اللمسة لم أرها من قبل إلا مع قرد مد يده ذات مرة يتحسس أنامله في وجل وفضول عندما كنت في حديقة حيواننا. هبت جرمينال منتفضة وأبعدت رأسها قليلا.. وثبتت (صفية) للخلف مترا بطريقة زادتني اقتناعا بنظرية

القرود تلك.. هذه حركات غير بشرية.. هذه حركات تمت بصلة لانعكاسات حيوانية متوارثة ولا دخل للعقل فيها..» (ص: ٦٤)

وفي مشهد آخر يصف العمال قائلا: «لا أحد يعيش هنا من دون عمل.. عمل قذر.. عمل حرام.. عمل غير قانوني..» (ص: ٨٦) أما النساء، فغالبا ما يتم وصفهن بوصف مهين، كما حدث في حديث إحدى النساء عن الاغتصاب، حيث يقدم بشكل ساخر وكأنه من طقوس الحياة اليومية في عالم الأغيار: «يمكن لهذه الفتاة أن تجلب لك الكثير من المال بدلا من أن تكون عبئا عليك. الصنف شحيح والموجود رديء.. أنت ترى وجه سمية البشع الذي يذكر بالأسلة.. هذه الفتاة ستكون مكسبا لنا.» (ص: ٩٣)

التخفيف من التقديم السلبي للذات

رغم الفوقية التي تسود الخطاب، تظهر لحظات يعبر فيها السارد عن نوع من الحيرة أو التأمل في قسوة العالم الذي ينتمي إليه. لكنه لا يذهب إلى حد النقد الجذري، بل يبرر القسوة بالملل أو غياب المعنى: «ماذا بوسعك أن تفعل في هذه اللجنة الصناعية؟ تنام.. تتعاطى المخدرات.. تأكل حتى يزهد الطعام أنفاسك..» بل ويقول: «ربما كنت ملولا.. هذا ليس ذنبي كذلك» (ص: ٦)، ليجعل من الوضع القائم قدرا أكثر منه اختيارا.

التخفيف من التقديم الإيجابي للآخر

تقلل الرواية من قيمة الجوانب الإنسانية لدى الأغيار عبر تقليص مساحة أصواتهم، ما عدا شخصية جابر، الذي يعامل كاستثناء. حتى حينما يظهر ذكاء أو شجاعة، يتم التشكيك ضمنيا في دوافعه، أو يقدم كحالة نادرة بين الأغيار: «إنه أحمق وعليه أن يدفع الثمن.. أنا لن أقوم بكل هذه المغامرة وأعود من دون تذكارات... كنت أحكي لهم عن جابر الأحمق.. جابر الساذج الذي لم يستطع أن يفهم قواعد اللعبة..» (ص: ١١١ و١١٣) ورغم أن جابر ألقدهما أكثر من مرة، فإن خطاب الريبة يظل حاضرا: «لم يفعل جابر شيئا طيلة هذا النهار.. لما سألتها عما ينوي عمله بنا قال في غموض: انتظرا حتى الوقت المناسب.. لماذا لم تتخلص منا؟» (ص: ٦٧)

وحتى عند الحديث عن الأحياء العشوائية، فإن الرواية تغلب عليها صور الانحطاط والفوضى، ولا تمنح الشخصيات الأخرى مساحة كافية لتقديم ذاتها: «كنا نمشى وسط المجموع ذاهلين.. هناك قفص خشبي عليه أكوام من جلود الدجاج بشعة المنظر.. أكوام من الثياب المتسخة المستعملة تباع بمائة جنيه للقطعة.. نتوغل بين مجموعة من العشش الصفيح، أو المصنوعة من البامبو وبقايا الأخشاب.. الأرض مبتلة تغوص فيها قدماك.. مزيج من الوحل وبقايا الغسيل والمجارى الطافحة.. على أبواب العشش تقف نساء قدرات بشعات المنظر يضحكن لى فى إغراء..» (ص: ٣٠) هذا البناء الخطابى يظهر كيف تنتج الرواية - من خلال السارد اليوتوبى - نسقا أيديولوجيا متكاملًا يعيد إنتاج التمييز من خلال ثنائية «نحن الأفضل» مقابل «هم الأسوأ»، مع مساحة محدودة جدا للمراجعة النقدية أو الاعتراف بالآخر كند أو إنسان.

المربع الأيديولوجى المضاد (من منظور "الأغيار" - خاصة جابر)

التأكيد على الجوانب الإيجابية لـ "نحن" (الأغيار)

يمثل جابر صوت العقل والكرامة والقدرة على التكيف مع ظروف مهينة، وهو ليس مجرد شخصية روائية بل تجسيد لإمكانية النجاة دون امتلاك أى أداة مادية أو دعم مؤسسى. إنه يفكر ويخطط وينقذ ويقدم الحماية للجميع حتى لو كان مواطنًا يوتوبيا: «لا شكر على واجب.. أكره القتل على الجانبين، برغم أنكما جئتما طبعًا للفوز بتذكاري فريدي!» (ص: ٥٩) وفى موقف آخر، يظهر جابر شجاعة نادرة حين يصر على أن يرافق السارد وجيرمينال فى رحلتهم المحفوفة بالمخاطر، قائلاً: «أنتما فى أمان الآن.. ودًا عا.. فقط لا تعودا ولا تحاولا صيد واحد آخر منا.. فلن أكون موجودا المرة القادمة..» (ص: ١١٠) هذا المشهد يظهر أن الأغيار يمتلكون أخلاقًا عملية وشجاعة تتجاوز عدالة الفرصة إلى الحكمة فى تدبير النجاة.

التأكيد على الجوانب السلبية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يرى جابر أن اليوتوبيين ليسوا فقط منسلخين عن الواقع، بل هم مخلوقات مشوهة أخلاقيا ونفسيا، غير قادرين على الإحساس بغيرهم. فى تعليق ساخر على دافع الصيد

عندهم يقول: «ينتشر أمثالكم كالضباع بحثا عن فريسة.. بينما العبيد والمجوارى من عندنا يقفون بانتظار تلبية طلباتكم.. كل شيء متاح وللبيع حتى العبيد أنفسهم» (ص: ١٠٧) وهذا يشير إلى أن الصيد عندهم ليس بدافع البقاء، بل بدافع المتعة والتفاخر. كما يسخر من عجزهم رغم ما يملكون فيفضح خواءهم الداخلي وانحرافهم عن الإنسانية: «أنت هنا تأكل من طعامي وتنام تحت سقفى.. نظرت لى فى تحد. يتمنى أن يمزقنى لكنه تحت رحمتى بالكامل لهذا يصمت.. لو كان يملك شيئا واحدا محترما فهو الذكاء. قال لى: معنا بعض المال.. فهل هذا ما تريد؟ قلت فى اشمئزاز: لا أريد شىءا من مالك..» (ص: ١٠٧)

التقليل من أهمية الجوانب السلبية لـ "نحن" (الأغيار)

يعترف جابر بوجود عنف وفوضى فى مجتمعه، لكنه يعزو ذلك إلى التاريخ الطويل من القهر والتجويع والانفصال عن النظام وحين يعلق على أخطاء أفراد مجتمعه، يربطها دائما بالحرمان: «لاحظ أن ٧٨٪ من مرتكبي الاغتصاب عاطلون.. دحك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى التى تلعب فى أى مجتمع دور قضبان الجرافيت فى المفاعلات الذرية.. مجتمع بلا طبقة وسطى هو مجتمع مؤهل للانفجار.. لقد نسف ما تبقى من الطبقة الوسطى، وتحول المجتمع إلى قطبين وشعبين.. وبنفس منطق قلاع القرون الوسطى عندما كان الحكام يقيمون الحفلات الماجنة بينما الطاعون يفتك بمحيط الفقر الخارجى.» (ص: ٨٣) فى هذا المقطع يسعى الخطاب إلى تبرير السلوكيات السلبية للجماعة الداخلية وتفسيرها فى إطار أسباب خارجية أو هيكلية، بدلا من مساءلتها أخلاقيا أو تحميل أفراد الجماعة مسؤولية مباشرة عنها. فى هذا السياق، يعترف جابر بوجود عنف وجرائم (٧٨٪ من مرتكبي الاغتصاب عاطلون)، لكنه لا يعرض ذلك بوصفه دليلا على انحراف أخلاقى أصيل فى مجتمعه، بل كنتاج حتمى للفقر والبطالة والتجويع. بهذه الطريقة، يتم نفى أو تخفيف المسؤولية الأخلاقية الفردية، وتحويلها إلى نتيجة منطقية لسياسات التهميش الطبقي التى مارستها النخبة اليوتوبية. ويستمر هذا التبرير فى الجملة التالية (دحك بالطبع من ذوبان الطبقة الوسطى.. محاولا أن يقول: إن ما يحدث فى مجتمع الأغيار من عنف أو انحراف ليس نتيجة خلل داخلى فيهم، بل

انهيار للبنية الكلية للنظام. أما المقارنة بين الوضع المعاصر و«قلاع القرون الوسطى»، حيث كان الحكام يحتفلون بينما الفقراء يموتون بالطاعون، فتقدم لتعزيز الخطاب الدفاعي للأغيار. إنها محاولة لإعادة بناء صورة إيجابية نسبية لـ"نحن"، رغم الاعتراف بالسلوكيات السلبية، وذلك بإسناد تلك السلوكيات إلى السياق لا إلى الفاعل.

التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لـ "هم" (اليوتوبيين)

يتجلى مبدأ التقليل من أهمية الجوانب الإيجابية لليوتوبيين بوصفه أحد الأضلاع الأربعة في المربع الأيديولوجي لفان دايك، من خلال استخدام خطاب الأغيار لنزع الشرعية الأخلاقية والاجتماعية عن الطرف المهيمن إذ تقدم صورة اليوتوبيين ككائنات تمارس الكذب بسهولة ودون ضمير، وهو ما يعكس نزعة إلى تجريدهم من أى بعد أخلاقي أو إنساني: «أنا لا أثق بقسمكم لأنكم.. وتكذبون علينا بالسهولة التي يكذب بها المرء على خروف.. لا أريد سماع كلمة عن أبيك وحياة أبيك..» (ص: ١٠٣) كما يسعى هذا الخطاب إلى تحطيم الصورة الإيجابية التي يرسمها اليوتوبيون عن أنفسهم، عبر نزع الصفة الأخلاقية، وتحقير الأصل الاجتماعي، ورفض أى محاولة لإضفاء بعد إنساني عليهم: «أنا أعرف أصل وفصل هذا الرجل.. هؤلاء لم يأتوا من السماء.. كلهم جاءوا من أسفل أسفل الطبقات» (ص: ٢٨) فيهدف الخطاب إلى تقويض سردية التفوق التي يتبناها اليوتوبيون، وتفكيك وهم الامتياز الوراثي أو الطبقي ونفى الطابع النخبوي أو القدرى المفترض في وجودهم، ومحاولة فضح حقيقة طبقية مدفونة خلف الثروة والسلطة.

فهذه النماذج، توازن بين النقد والتفسير، بين الإدانة والتحليل، ليعطى للأغيار بعدا إنسانيا حقيقيا يتجاوز ما يحاول الراوى اليوتوباوى نفيه أو تجاهله.

تحليل بنى الخطاب

البنى الكبرى

حبكة الرواية تركز على رحلة تحول تقود السارد من الاستهلاك العبثي، حيث لا قيمة لأى شىء إلا المتعة والتجربة، إلى المواجهة المباشرة مع الواقع الذى لطالما

تم تجاهله. يتحول السارد من متفرج ساخر إلى قاتل، ومن مستخدم للأغيار إلى مطارِد ومهدد، وصولاً إلى لحظة القتل التي تنتهي الرواية، حيث يتجسد أقصى درجات الانحطاط الإنساني.

والبناء السردى ينقسم بوضوح بين رواية من داخل يوتوبيا بصوت السارد الرئيسى، الذى يمثل نخبة منفصلة عن العالم، ومن خارجها من خلال جابر، الذى يقدم رؤية واقعية ومعرفية للأرض، وبالتالي يمنح القارئ منظورا مضادا للخطاب الرسمى. على هذا النحو، فإن بنية الرواية تعكس الثنائية البنيوية التى تؤسس لها: الداخل والخارج، النخبة والهامش، الجدار وما وراءه.

تعد رواية يوتوبيا تمثيلاً نموذجياً لصراع طبقي مركزى يشكل الهيكل العام للنص، وهو الصراع بين طبقة مترفة تملك السلطة والثروة (اليوتوبيون) وطبقة مسحوقة ومهمشة (الأغيار). تبنى معظم الأحداث والسرديات فى الرواية حول هذا التوتر الجذرى الذى لا يعبر عنه فقط من خلال الحبكة أو الشخصيات، بل من خلال البنية الخطائية العامة التى تقسم العالم إلى قطبين متناقضين تماماً، يتسم كل منهما بمنظومة قيم ورؤية خاصة للواقع فمنذ الصفحات الأولى، تظهر ملامح هذه البنية عبر جمل تفصل بين "نحن" و"هم"، كما فى المثال: «نحن أسرة واحدة.. إلخ... لسنا مثل الأغيار... إلخ» (ص: ٩) هنا يتم تقديم "نحن" (اليوتوبيين) بوصفهم جماعة متماسكة، منظمة، ومنفصلة عن "الأغيار"، الذين يحذفون من نطاق هذه الأسرة الإنسانية الواحدة. هذه البنية الافتتاحية تؤسس ثنائية حادة: الداخل (يوتوبيا) مقابل الخارج (العالم المحطم)، وهى ثنائية تنكسر لاحقاً كإطار نظرى ضمنى يوجه كل تمثيل سردي لاحق فى الرواية: «إذن فليمت الآخرون.. على الأقل، يمكنك أن تراهم وهم يموتون بدلاً من أن يروك هم..» (ص: ١٦) يعكس هذا تصعيداً فى البنية الكبرى، حيث لا يكون الفصل بين الطبقتين مجرد عزل رمزى أو اجتماعى، بل يتحول إلى خطاب تطبيعى للقتل والموت. تقدم رؤية اليوتوبيين للعالم الخارجى بوصفها مشهداً للموت الذى لا يثير فيهم سوى نوع من التسلية الباردة، مما يشير إلى تفكك كامل فى منظومة القيم المشتركة، وانفصال حاد عن مبادئ التعاطف أو المسؤولية الإنسانية. هذا التعليق يعكس جوهر الرواية كعالم ديستوبى يقوم على

اللامساواة المأسسة: «لكل واحد منا فأره الذى يعتبره أثنى شىء فى العالم. ربما يراه الآخرون مجرد فأر حقير، لكنه بالنسبة لك أهم شىء فى الوجود» (ص: ١١٤) فى هذا السياق، يتعمق البعد الرمزى للصراع الطبقي؛ الفأر هنا ليس مجرد كائن، بل استعارة للذات أو القيم الذاتية التى تفهم فقط ضمن سياق اجتماعى خاص. فالأشياء التى تعد ثمينة أو ذات معنى لدى أحد الطرفين، تختزل وتحقر لدى الطرف الآخر، ما يشير إلى انعدام التواصل الرمزى بين الطبقتين. إنه تأكيد ضمنى على أن كل طبقة تعيش فى منظومة دلالية خاصة بها، حيث لا يوجد مجال لفهم مشترك أو تقييم موحد للمعنى والقيمة.

البنى الصغرى

اللغة: يستخدم خطاب يوتوبيا لغة استعلائية ومتشظية، تعكس حالة الاغتراب الطبقي والثقافى التى يعيشها السارد ومن يمثلهم من الصفوة. تكثر فى خطابهم المصطلحات الأجنبية والمفاهيم الاستهلاكية المستوردة، مثل: "الفودو" و"الليبيدافرو" و"الفلوجستين"، التى تستخدم بلا سياق حقيقى، بل كرموز لما بعد الحداثة أو لهاث خلف لذائذ سطحية لا ترتبط بجوهر الإنسان أو بيئته. هذه اللغة تكرر الإحساس بالفوقية من خلال الاستعراض الجسدى والرمزى، كما نرى فى قول الراوى: «أتأكد من أن شعرى حليق بطريقة هنود الموهيكان الشهيرة.. الصدر عار إلا من عدة قلائد عملاقة.. هناك جماجم وأيقونات من سحر الفودو.. لست عابد شيطان، لكن هذه الأشياء تبدو مثيرة على صدرى..» (ص: ٣)

وفى موضع آخر يقول: «كنت أعرف اسم الدواء الجديد لأن أبى يستورده.. (ليبيدافرو).. لهذا لا يتوب رجال يوتوبيا أبدا.. لا يشيخون ولا يهرمون... يملكون السطوة والنفوذ والمال، ولا يملكون الفتوة الطبيعية التى لا تصنعها العقاقير» (ص: ٢٥) أما عن الفلوجستين، فهو أكثر تعبيراً عن انغماس اليوتوبيين فى عالم اصطناعى من المخدرات واللذة، إذ يقول:

«هو سيد المخدرات.. هناك فى يوتوبيا تسيل أنهار الفلوجستين... إنهم يأكلونه

ويشربونه... إنهم يعرفونه... صنابير الماء لا ينزل منها ماء، بل فلوجستين... يغسلون
أقدامهم في الفلوجستين... يسقون كلابهم فلوجستين...» (ص: ٣٨)

كل هذه العبارات تعكس تراكم المصطلحات الغريبة مع الأفعال الحسية المفرغة من المعنى، بما يكشف عن اغتراب كامل عن الواقع وتعلق بهويات استهلاكية سطحية. تعكس هذه اللغة رغبة مستمرة في تزييف الواقع بلغة اصطناعية، تستخدم لإضفاء شرعية على تفوق زائف وتصبح اللغة هنا أداة لتكريس الفصل بين عالم يوتوبيا النظيف المصنوع، وعالم الأغيار الحقيقي الفارق في الألم.

بالمقابل، يتسم خطاب الأغيار، لا سيما في صوت جابر، بلغة تراجيدية واقعية، تتكئ على ألفاظ الحياة اليومية وتجارب البقاء والخوف. فحين يصف جابر حيه، يقول: «وسط برک الماء الآسن، وبقع الكيروسين، وسط جثث الكلاب، وصبية يلعبون القمار...» (ص: ١٠٤) ويظهر الطابع الأخلاقي المقاوم في خطابه كذلك، كما في قوله وسط مجموعة من اللصوص: «اسمعوا.. هذه الفتاة جائعة.. أكثر جوعاً منا.. كلکم سرق يوماً بسبب الجوع.. لقد أخذتم ما لكم فتركوها...» (ص: ٧٣) وفي موضع آخر، يتحدث عن دوافعه الإنسانية في حماية أخته صفيّة: «أنا حي.. لن أموت وأترك (صفيّة) تسرق.. لن أموت وأتركها للنساء يخبشن وجهها ويطلقن عليها نعوتاً قذرة.. لن أموت وأتركها تجوع...» (ص: ٤٨) حتى اللغة التي تستخدم في وصف العنف عند الأغيار تأتي بصيغة دفاعية أخلاقية، كما في هذا المقطع: «قالت لي إنه مفترس.. إنه يغار عليها.. إنه يحمل مطواة قرن غزال يمكنه أن يرشقها في زجاج نظارتی» (ص: ٤٣)

وهنا تتجلى اللغة كأداة مقاومة: تقرر بالوضع القاسي لكنها لا تفقد اعترافها بالإنسانية. وبهذا التقابل، يظهر الفارق بين خطاب يوتوبيا وخطاب الأغيار: الأول مفرط في الاصطناعية، مهووس بالمتعة، مشبع بالغربة عن المحيط؛ والثاني مشبع بحس واقعي مؤلم، لكنه أكثر صدقا ووضوحا، وأكثر ارتباطا بالحقيقة المادية للحياة.

المعجم: في رواية يوتوبيا، تلعب الحقول الدلالية دورا حاسما في كشف البنى الأيديولوجية العميقة التي تحكم عالم الرواية وتوجه العلاقات بين الطبقات. فالمفردات المستخدمة في خطاب سكان يوتوبيا تعكس عالما مغلقا على ذاته، يقوم على التفوق،

الامتلاك، والإقصاء العنيف للآخر. تتكرر كلمات مثل "الأغيار"، "الصيد"، "التذكار"، "الخراب"، و"المول"، وهي جميعا مصطلحات تنتمى إلى حقل دلالي يربط بين العنف والترف والمتعة النخبوية. فعلى سبيل المثال، مصطلح "الصيد" لا يستخدم هنا بمعناه الطبيعي (صيد الحيوانات) بل للإشارة إلى ممارسة وحشية يمارسها شباب يوتوبيا الذين يتسللون إلى مناطق الأغيار لقتلهم، فى عملية ينظر إليها كلعبة ترفيهية أو إثارة، أشبه برحلات سفارى بشرية. أما كلمة "تذكار"، فتتخذ دلالة مرعبة ومجردة من الإنسانية؛ إذ لا تشير إلى ذكرى عاطفية أو رمزية، بل إلى أعضاء بشرية (كالعظام أو الأصابع) تنتزع من أجساد الضحايا وتحتفظ بها بوصفها غنائم. هذه المفردات تعكس انحدارا أخلاقيا يصل إلى حد التشييء الكامل للآخر، وتجعل من العنف وسيلة للمتعة لا مجرد ضرورة أو اضطراب. كذلك، فإن تكرار كلمة "المول" فى وصف الحياة داخل يوتوبيا يشير إلى هيمنة نمط استهلاكى فارغ، حيث تحتزل الحياة فى التسوق والمتعة الجسدية، بعيدا عن أى التزام أخلاقى أو اجتماعى.

فى المقابل، يحمل خطاب جابر، ممثل الأغيار، حقولا دلالية مختلفة تماما تعكس أولويات البقاء والكرامة الإنسانية. تتكرر فى حديثه كلمات مثل "العيش"، "الستر"، و"الشرف"، وهى مفردات تنتمى إلى عالم يسعى إلى الحد الأدنى من الأمان المادى والمعنوى. فـ"العيش" لا يعنى الترف، بل الخبز الضرورى للبقاء، و"الستر" يفهم بوصفه حماية للذات والبيت من الانكشاف أمام قسوة الحياة، أما "الشرف" فهو القيمة الوحيدة المتبقية فى عالم متهالك، يتمسك بها كخط دفاع أخير ضد الانهيار الأخلاقى والاجتماعى.

هذا التباين فى الحقول الدلالية لا يعكس فقط اختلافا فى اللغة أو الثقافة، بل يمثل صراعا وجوديا بين عالين: عالم يعتبر الآخر متعة وعرضا ترفيهيا قابلا للاستغلال والتدمير، وعالم يحاول الاحتفاظ بإنسانيته وسط الفقر والذل. وبهذا المعنى، يصبح اختيار الكلمات فى الرواية أداة استراتيجية تظهر كيف أن اللغة ليست محايدة، بل محملة بالأيديولوجيا، وتستخدم لتكريس السيطرة من جهة، وللصمود والمقاومة الرمزية من جهة أخرى.

الضمائر: تشكل الضمائر، ولا سيما ثنائية "نحن/أنتم"، عنصرا بنيويا محوريا في الخطاب السردى لرواية يوتوبيا، وتستخدم لتكريس الانقسام الرمزي والوجداني بين الطبقتين المتصارعتين. هذه الثنائية لا تعكس فقط اختلافا لغويا، بل تترجم رؤيتين متناقضتين للعالم، تسهم كل منهما في تثبيت موقع المتكلم داخل منظومة الصراع الطبقي؛ في السرد اليوتوبى، يوظف ضمير "نحن" بأسلوب فردانى نرجسى، يشير إلى جماعة مترفة تعلو من شأن ذاتها وتقصى الآخر بوصفه أدنى. يتجلى هذا فى قول السارد: «عندما كان آباءونا يقتنصون الفرص، كان آباؤكم يقفون أمام طوابير الرواتب فى المصالح الحكومية.. أنتم لم تفهموا اللعبة مبكرا؛ لهذا هويتم من أعلى إلى حيث لا يوجد قاع.. ما ذنبنا نحن؟ أنتم أقل منا فى كل شىء.. هذه سنة الحياة..» (ص: ١٠١) هنا يتحول "نحن" إلى ضمير للتمييز والتفوق الطبقي، ويستخدم لتبرير الوضع القائم عبر خطاب يدعى المنطق والطبيعية (هذه سنة الحياة)، مع تحميل الطرف الآخر (الأغيار) مسؤولية انحدارهم. لا يظهر "أنتم" كوصم خارجى فقط، بل كدعامة أيديولوجية تبنى حدودا صلبة بين الطبقتين وتضفى شرعية على الامتياز الطبقي.

فى المقابل، يوظف "نحن" فى خطاب جابر بدلالة مختلفة تماما، تشير إلى الانتماء الجماعى والمعاناة المشتركة. يقول جابر: «نحن الفقراء لم نكف عن اعتبار إسرائيل عدوا.. بينما هويينا نحن إلى الحضيض.. لو ابتاع كل منا زيتونة فلسوف يصير بائع الزيتون مليونيرا..» (ص: ٦٣) فى هذا السياق، لا تعبر "نحن" عن امتياز بل عن تهميش؛ الضمير هنا يستحضر لتوحيد صوت الأغيار، ورسم صورة جماعية لمعاناتهم اليومية وفشلهم فى النهوض الاقتصادى والسياسى. كما يعكس توظيف "نحن" إدراكا جماعيا للمأزق التاريخى والاجتماعى، خلافا لاستخدامه فى الخطاب اليوتوبى كأداة فصل وتفوق.

بهذا المعنى، لا تعد الضمائر فى الرواية مجرد أدوات لغوية، بل مكونات أيديولوجية تعيد إنتاج التراتب الطبقي وتعزز منطق الانقسام؛ إذ تظهر كيف أن اللغة تستخدم لترسيخ مواقع القوة والضعف، الانتماء والإقصاء، والتبرير والإدانة، فى عالم روائى يقوم على التفاوت الجذرى والتنافر الرمزي.

النتيجة

رواية يوتوبيا ليست مجرد عمل خيالي مستقبلي، بل هي نص أيديولوجي مكثف، يشترك مع أسئلة أخلاقية وسياسية واجتماعية معقدة، ويتحول إلى مرآة مكبرة لانقسام المجتمع المعاصر. إنها لا تقدم فقط تحذيرا مما يمكن أن يكون عليه المستقبل، بل تكشف عن واقع كامن في الحاضر، يزداد فيه الانفصال بين الطبقات، ويتفاقم فيه التشييء، ويتراجع فيه الحس الإنساني لصالح ثقافة استهلاكية عبثية.

وقد أتاحت نظرية فان دايك، من خلال مثلث الخطاب والمعرفة والمجتمع، أداة فعالة لتحليل الديناميات النصية التي تأسس التحيز الطبقي داخل الرواية. فالخطاب في يوتوبيا ليس بريئا، بل موجه أيديولوجيا لتكريس تصور نرجسي عن الذات اليوتوبية، مقابل تقديم نمط نمطي سلبي للآخر المقموع. وتظهر البنية السردية، على المستوى البنيوي واللغوي، كيف يتم إنتاج هذه التمثيلات وتدويرها داخل الرواية، عبر المفردات، والضمائر، وتوزيع الأصوات.

كذلك فإن تطبيق المربع الأيديولوجي على الرواية كشف عن استراتيجيات تقديم الذات الإيجابية والتقديم السلبي للآخر، حيث يتم تأكيد تفوق اليوتوبيين وتحضرهم، مقابل حيوانية الأغيار وهمجيتهم. غير أن المربع الأيديولوجي المضاد، لا سيما من منظور جابر، يمنحنا قراءة معاكسة تعيد الاعتبار للأغيار كذوات لها معرفة، وقدرة، وكرامة. فشخصية جابر ليست فقط رمزا للمقاومة الفردية، بل هي أيضا تمثيل صوتي لهامش ينطق بالحقيقة وسط صخب الزيف.

هذا التحليل يثبت كيف يمكن للنص الأدبي أن يتحول إلى ساحة صراع خطابية تشهد مواجهة بين رؤيتين للعالم: واحدة تنكر إنسانية الآخر وتسعى إلى تشيئته، عبر خطاب متعال استعلائي، وأخرى تقاوم من الهامش وتحاول استعادة ما بقي من كرامة الإنسان، وتفضح تناقضات اليوتوبيا المزعومة. ومن هنا، فإن رواية يوتوبيا لا تقرأ بوصفها سردية خيال علمي فقط، بل كوثيقة نقدية تفضح آليات القمع والتهميش، وتتيح لنا، عبر أدوات تحليل الخطاب، أن نعيد التفكير في علاقتنا بالآخر، والسلطة، والمعرفة، والمجتمع.

المصادر والمراجع

- أعرضى، رشيد. (٢٠٢٥). تحليل الخطاب الشعري قراءة اتساقية لقصيدة أبي العباس الجراوى (٦٠٩هـ) فى وصف معركة الأرك. الأردن: مركز الكتاب الأكاديمي.
- بن غالى، ناصر بن عبدالله. (٢٠٢٤). نحو لسانيات عربية اجتماعية من النظرية إلى التطبيق، الرياض: مجمع الملك سلمان العالمى للغة العربية.
- توفيق، احمد خالد. (٢٠١٤). يوتوبيا. ط ١. القاهرة: دار الشروق.
- الزنتاسى، سمر خلف الله. (٢٠٢٤). ترامب وبايدن؛ تحليل الخطاب الصحفى، مصر: دار العربى للنشر والتوزيع.
- سامح، شريف. (٢٠١٧). الشعارات السياسية: دراسة نظرية وتطبيقية. مصر: العربى للنشر والتوزيع.
- الساوى، عبدالحفيظ. (٢٠١٣). الخطاب السياسى للرئيس محمد مرسى: دراسة تحليلية. إسطنبول: دار أصالة للنشر.
- الشويرخ، صالح بن ناصر. (٢٠٢٣). منهجيات البحث فى اللسانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملك سلمان العالمى للغة العربية.
- الشويرخ، صالح ناصر. (٢٠٢٥). قضايا معاصرة فى اللسانيات التطبيقية. الرياض: مجمع الملك سلمان العالمى للغة العربية.
- العربى، ربيعة. (٢٠١٩). الخطاب: المحددات واليات الأشغال. الأردن: دار أمجد للنشر والتوزيع.
- العلى، بلال موسى. (٢٠٢٢). لعبة الحقل الرقمى: صراعات السلطة والهيمنة والتمايز فى حقل التواصل الاجتماعى: توسيع إطار النظرية البوردويوية. الإمارات العربية المتحدة: فان دايك، تتون. (٢٠٢٣). الأيديولوجيا والخطاب: مقدمة متعددة التخصصات. ترجمة: سعيد بكار؛ لحسن بوتكلای. الدوحة: المركز العربى للأبحاث ودراسة السياسات.
- محمد، سالى عاطف فتح الله. (٢٠٢٣). إعلام الحرب بين الحقيقة والتضليل: حرب أكتوبر. مصر: دار العربى للنشر والتوزيع.

الإنجليزية:

- Jawad, F. A.-M. (2023). A Proposed Objective Version of the Ideological Square Theory in Critical Discourse Analysis. مجلة كلية التربية الأساسية للعلوم التربوية والإنسانية، ١٥(٦١)، ١٠٧٤-١٠٥٩.